اللقاء

وفاء مليح
كاتبة من المغرب.

(١)

يسمّيني زنبقة القلب أو هكذا يشاء أن يناديني حين نختلي بروحينا. والمسافة تقرب بيننا. أنظرُ في عينيه وأكتفي بالنظر، بينما يعبث بجسدي كلّه، عازفًا على أوتاره لحنًا جميلًا، منعشًا مساماتِ جلدي، فتصير نوافذَ تستقبل هواءَ الحبّ. حواسّي تغنّي مع عزفه. انطلقتْ زغرودة من جسمي تدعوه إلى السكن في رحمي. حكيتُ له كلامًا صامتًا ودعوتُه إليّ بعينين مفتوحتين في غرفةٍ يضيئها النهارُ.

أستلقي على فراشي عاريةً. يتمدّد إلى جانبي. أجرّده من ثيابه قطعةً قطعة. أتأمّل تفاصيلَ جسده. أحدّق في عينيه، في الشوق المنبعث منهما، في الرغبة المتوثّبة. ترتجف شفتاي على جبينه مثل دموع رقيقة، دافئة. أقبّل العينين. الوجنتين. الأنف. الشفتين. أنحدر ببطء شديد نحو العنق. ثم ببطء تنحدر قبلاتي دافئةً إلى كلّ تفاصيل الجسد، حتى تبلغ أصابع القدمين. أراه الآن ممدّدًا على الفراش مثلَ حلمٍ أتلمّسه. حلم أيقظ أنوثتي الدفينة في جسدي النافر، العصيّ على التجاوب، يدعوني إلى وليمة الالتحام الملتهب. يَرْكبني جسدُه. ننصاع لفوران الرغبة. بعينين مفتوحتين أترك جسدي مستسلمًا لقبلاته. أحسّ عرقَه طريًّا فوق لحمي. يجري الدمُ في عروقي ساخنًا. أشمّ رائحته. أعشق رائحة جسده التي تفوح من مسامّ جلده، غيرَ ممزوجةٍ بعطرٍ اصطناعيّ. يمتزج عرقُ جسدينا في عراك السرير. يستمرّ بوصف ما يقوم بفعله. حركةً حركة، كلمةً كلمة. يزداد هيجاني. يزداد هيجانُه. أدعوه إلى الدخول فيَّ. تنبعث شهقةٌ من جوفي. أحسّ تقلّصاتٍ في حوضي، فيتأكّد أنني بلغتُ الذروة. لا يهدأ. يزداد فورانُه إلى حين وصوله الذروة. تهدأ العاصفة. نتمدّد بارتخاءٍ على الفراش، وأنفاسُنا مازالت تلهث. تغوص شفتاي في شفتيه. نترك السرير لنكمل القُبل تحت الدوش.

(٢)

باتت اللحظاتُ، النهاراتُ، الأماسي المتتالية، ترديدًا لمعزوفة اللالقاء بين فراغٍ وآخر. تَعْبرني ذبذبات، وشوشات. تتسارع حينًا، وتبطئ حينًا آخر. لكنْ ما إنْ ألتقيه حتى تنصهر كلُّ الأزمنة في الآن، ولا يبقى إلّانا. ترفعنا الذبذبات وإنْ عاندْنا. يصرخ همسي: «خذ لهبي الغافي وضعْه بين يديك.» الآن. الآن. هي ذي انتباهةُ اللحظة. يقظةُ الحواسّ. كم أشتهي عناقًا عميقًا ممزوجًا برائحة بشرتك لأستنشق الأوكسجين بأعلى جرعات. آه كم أحمل معي الكثير من الحبّ. من الألم. متى يحين أوانُ اللالقاء؟

يمرّ يومي. أختلقُ الذرائعَ للهرب من أيّ تواصل حميم يجمعنا. أنغمس في عملي لكي لا أترك مجالًا للتفكير فيه أو الغوص في لحظات الشبق تلك. ألتقي بأصدقاء هنا وهناك. أتحدّث إليهم طويلًا في كلّ شيء وفي اللاشيء: مواضيع الجدّ، مواضيع الهزل. أُرهق نفسي في التزاماتي اليوميّة. يمرّ أسبوع من دون أن أراه. أسبوعان. ثلاثة. أقول في نفسي هي ذي جولتي الأخيرة كي أضع فيها حدًّا لعلاقتنا. أضغط على نفسي كي لا أفتح هاتفي المحمول. أبقيه مقفلًا أيّامًا وأيّامًا...

(٣)

في لحظة نسيانٍ، تركتُ هاتفي المحمول مفتوحًا. رنَّ وكأنه ينتظر هذه اللحظة. تسارعتْ نبضاتُ القلب. ارتفعتْ حرارةُ جسدي. وجدتُ رقمه على الشاش. تردّدتُ. اضطربتُ. ثم أجبت:

ـ نعم.

ـ أحاول الاتصال بكِ منذ فترة، فتجيبني العلبةُ الصوتيّة. انتظرتُ أن تتصلي أنتِ، لكنك على ما يبدو خارج التغطية. ماذا هناك؟

ـ لا شيء، فقط بعض الانشغالات. ثم...

ـ ثم ماذا؟

لذتُ بالصمت. أردف قائلًا:

ـ نادية، أريد لقاءك بعد ساعة. لي رغبةٌ شديدةٌ في الجلوس معك. سأنتظركِ بسيّارتي في مكاننا المعتاد.

أقفل الهاتف من دون أن ينتظر الجواب.

مكثتُ برهة أجمع فيها شتات نفسي. لهفة الشوق كانت بادية حين نطق أحرفَ اسمي. أزداد إعجابًا باسمي حين يأتي ذكرُه بين شفتيه. أطربُ نشوةً وهيامًا وأتناثر أمامه كأوراق الخريف. حملتُ حقيبتي وأسرعتُ نحو المكان. وجدتُه في انتظاري. صعدتُ السيّارة. قبّلتُه على الخدّين، وكلُّ جوارحي تغنّي. تفحّصني وكأنه يريد اكتشافي من جديد. عيناه تتطلقان عتابًا ولومًا.

في مقهى ميرمار بشاطئ الهرهورة نلتقي، حيث يحلو لنا أن نراقب أفولَ الشمس ونتأمّل الغسق. جلسنا إلى مائدة تشرف على البحر. دام صمتُنا لحظات. إحساسي بوجوده يملؤني فرحًا، كما يملؤني ألمًا حين أتذكّر أنّه لها، لا لي. أحاول أن أتمتّع بوجوده معي وحدي الآن، لكنّ عبثًا تأخذني مرارةُ الواقع.

ـ افتقدتكِ! ما كلّ هذا الغياب؟

ـ أنا هنا بجانبكَ، قلتُ مازحةً.

ـ أقصد تجنّبكِ لقائي. ثم إنني أحسّكِ شخصًا آخر. ماذا حلّ بك؟

لم أجب، بل رحتُ أتأمّله وأنا أفكّر في الدفء والأمان اللذين أشعر بهما وأنا إلى جواره، وفي جحيمي الذي أحترق فيه وحدي. خطر في بالي أن أتمشّى على الكورنيش. نهضتُ من دون أن أخبره. لحق بي. إحساسُه بسكناتي وحركاتي وكلُّ ذبذبةٍ تصدر عني ورّطني فيه إلى حدّ التمسّك المجنون به، وأنا أعلم أنه متزوج وله أطفال. على الكورنيش تمسّكتُ بالصمت، بينما راح يخطو خطواته إلى جانبي مرتبكًا: مرة ينظر إليّ، ومرةً إلى البحر. فجأةً سألته وكأنّ البركان الخامد في جوفي تحرّك:

ـ ماذا بعد؟

ـ ماذا بعد ماذا؟

ـ أنت متزوّج وغنيّ. لك أطفال وحياة اجتماعيّة قائمة. أنا محاسبة بسيطة في متجر تجاريّ ممتاز، تملك أنت فيه محلًا كبيرًا لبيع الملابس. أدرك أنني أعيش علاقة مستحيلة. علاقة لم أحلم بها يومًا. أعيشها بين نار المشاعر النابضة الدافئة، ونار الانتهاء قبل البدء.

شرد بفكره برهة ثم قال بصوت فيه دفء وحنين:

ـ أحبك. هذا ما أعرفه الآن وأحسّه. وأشتاق إليك في كلّ لحظة.

ـ وزوجتك؟ وأطفالك؟

يتردد قبل أن يجيب:

ـ علاقة الزواج علاقة مملّة، لا يمكنني أن أزيد عن هذا الكلام.

شدّني إليه بقوة، ثم أحاط خصري بذراعه، وغاص بشفتيه في شفتي. أنعشتني قبلتُه. ارتختْ على إثرها أساريري. عدنا إلى السيّارة تاركيْن حديثًا لأمواج البحر.

في بيت عمّتي التي أقيم معها نتجوّل بألفة. أستغلّ خروجَها للعمل لنختلي عندها. أمسك بيدي. مشيتُ وراءه فاقدةً النطقَ. قَصَدَ غرفةَ نومي ونظراتُه تأكلني اشتهاءً. لقاءاتنا دائمًا متأجّجة. وحين تتباعد يصير جسدي وردةً ذابلةً لا تنتعش إلا بماء جسده. أغيب بين يديه بينما يبدأ في خلع ثيابي قطعةً قطعة. أدركُ أنّ هذه الكيمياء نادرًا ما أجدها في جسد رجل. أن تستطيع الجمعَ بين مشاعر الحب وتفاعل الجسدين إحساسٌ لا يضاهيه إحساس، والعثُور عليه هِبة تمنحنا إيّاها الحياة: ففي بحثنا المتواصل عن دفء الآخر، إمّا أن يعصف بنا الحبُّ من دون لهب الجسد، وإمّا أن تتفاعل كيمياءُ الأجساد من دون لهب الحبّ. في حالتي هاته أعيش لهبَ الحب ولهبَ الجسد معاً. ألهذا السبب استسلمتُ له بالرغم من معرفتي أنه رجل متزوّج؟ ربما! فإحساسي بأنّ الحياة لا تجود علينا بلحظات حبّ جميلة، ملتهبة، توقظ الأنوثة إلّا فيما ندر، هو ما دفعني إلى أن أعيش هذه العلاقة المستحيلة. غصنا في قبلة عميقة ثم سألته:

ـ أتعرف لماذا أهرب منك؟ لأنك تصرّ في كلّ لقاءاتنا على علاقة السرير، وأنا أخاف التوغّل فيك. التورط فيك. التوحّد فيك.

يحملني إلى السرير. يبدأ في خلع ثيابه بحركات متسارعة كأنه يخاف أن تتفلت منه لحظةُ المتعة. يطأ جسدي محمومًا. يوغل فيّ وأوغل فيه. يسكنني وأسكنه. نرحل إلى حيث تُزهر الرغبة. رائحته تملأ أنفي. أصبح الجسدان جسدًا واحدًا ارتفع إلى علياء السماء. وبين صمتٍ وصمتٍ تأوّهاتٌ وآهاتٌ تؤجّج زنادَ الشهوة. أركب جسده ويركبني. يمتد فوقي كحصان جامح. بين صعود وهبوط يكتب أبجديّةَ الحبّ. في ذروة المتعة أسمع صوتًا يسأل: ماذا تفعلين مع شخص تحضنه امرأة أخرى؟

شعرتُ كأنّ يدًا تصفعني. انكمش جسدي، ونفرتْ كلُّ حواسي. عادت إليّ في هذه اللحظة عذاباتي التي أعيشُها بعد كلّ لقاءٍ نمارس فيه الحبّ. تركتُه جانبًا وأسرعتُ إلى الحمّام. انتهيتُ من الحمّام ولبستُ ثيابي بعيدًا عنه. انتظرتُ أن ينتهي من حمّامه ويتلفّع بثيابه. «ماذا حلّ بكِ؟» سأل. ظلّ واقفًا ينتظر الجواب. لزمتُ الصمت. كرّر سؤاله. أجبته وأنا أودعه أمام الباب:

ـ لا شيء بالتحديد. فقط لي رغبة في أن أختلي بنفسي. سأتصل بك لاحقًا.

(٤)

أحسستُ بعد رحيله بالفقد. دخلتُ غرفةَ نومي أتحسّس الفراش. كان باردًا كجسدي. ما الذي جرّني لأعيش هذه التجربة التي أرهقتْ أحاسيسي أكثر ممّا أينعتها؟ عادت بي الذاكرة إلى شهور خلت حين بدأتُ عملي محاسبةً في المتجر التجاريّ الممتاز، بعد فترة طويلة من العطالة كمجازة في شعبة الآداب. تعرّفتُ إليه من طريق زميلة لي تقتني ثيابَها من محلّه داخل فضاء المتجر. في أول لقاء كان انشداد بيننا. نظراته حين قدّمتُ نفسي عرّتني من ثيابي وقالت: «أنتِ لي.» في أول لقاء حكى لي عن أسرته. حاولتُ الهروب من أيّ لقاءٍ يجمعنا، لكنه كان يلاحقني، فلا تهدأ سريرته إلا حين يتحدّث إليّ ولو لحظات. في تلك اللحظات القليلة يتغيّر طعمُ الحياة. يحيطني باهتمام وحنان أفتقدهما في محيطي الأسريّ والمهنيّ؛ فقد اعتدتُ في علاقتي بالوالدين والإخوة أن أكون المبادرة في السؤال عنهم والاهتمام بمشاكلهم، خلافًا لعلاقتي بعُمَر، الذي غمرني بحنانه حتى كدت أنسى أنه متزوج. ضعفتُ أمام إلحاحه، وبدأتْ لقاءاتُنا تتواتر خارج فضاء المتجر. تطوّرتْ من الجلوس في المقاهي إلى اللقاءات الحميمة داخل بيت عمّتي الأرملة، التي هاجر ابنُها الوحيدُ إلى فرنسا منذ سنوات، فأصرّت على أن أقيم معها كي لا تبقى وحيدة، وأقنعتْ والديّ بذلك. تركتُ طنجة لألتحق بعمّتي في الرباط. وفي مكان ما من الحياة كنتُ أبحث عن حضن دافئ.

نادرا ما حدّثني عن زوجته. كلّ ما عرفته أنها من عائلة ثريّة وتملك مركزاً لتجميل النساء. تزوّجا منذ سبع عشرة سنة، ولهما ثلاثة أطفال، ويعيشان حياةً مستقرّة. لم أحاول أن أعرف عنها المزيد، لكني كنتُ أستشفّ حين يتحدّث عنها مرارةً يجهد كي يخفيها. غير أنّي حين أسأله عن مشاعره نحو زوجته ونحوي، يجيبني:

ـ هي زوجتي وأنت حبيبتي.

أرتبكُ حين أسمع الجواب، وتنتفض أنانيتي كامرأة أوقعها الحبُّ في شباك رجلٍ ليس لها. أنظر إليه وأقول له في صمت:

ـ أريدك لي وحدي، وحدي أنا فقط.

ولأنه يحسّني فهو يسمع عبارتي الصامتة ويقول:

ـ أنت تملئين حياتي.

أفكّر في اختلاف معاني الحبّ عندي وعنده: الحبّ يعني لي أن أرتبط بالشخص الذي أحبّه؛ أما هو فيعيش حبّه معي لحظةً بلحظة. ودائمًا أسأله «ما فائدة حبٍّ لا ينتهي بالارتباط؟» فيجيبني: «لكي نعيش الحب ونستمتع بلحظاته.» ألحّ في السؤال: «ولماذا تصرّ على استمرار علاقتنا وأنت لا تنوي الارتباط بي؟» فيجيبني: «لأنني أحبّك.»

أغيّر دفّة الحديث. تطول جلساتُ حديثنا. نستمتع فعلًا بألق اللحظات. نتجرّع جرعاتنا معًا من فنجان العشق الدافق.

(٥)

لا أنكر أنني في حمّى العلاقة خسرتُ أشياء وربحتُ أشياء أخرى. فما جدوى حبٍّ أعطاني بقدر ما أخذ مني؟ وكيف السبيل إلى استقرار النفس وتهدئة العاصفة؟ أتحاشى اللقاء تلو اللقاء. يزداد عُمر توترًا وعصبيّة، وكلما رآني، أصرّ على أن نلتقي. بكاء داخليّ صامت انبعث سؤالًا مريرًا:

ماذا تريد مني؟

لم يجب. شدّني من يدي وانطلق بي في اتجاه شاطئ الهرهورة. دائمًا يهرب بي إلى أماكن لا يعرفنا فيها أحد، حفاظًا على هيئته الاجتماعيّة. يصيبني الذهول أمام تركيبته هذه: فهو يرفض الإعلانَ عن علاقة حبٍّ ملأتْه سعادةً، ولكنّه يستمرّ في ارتباطٍ يخنق حياته ويودي بها إلى التعاسة. تعبنا من المشي على الشاطئ في صمت. طلبتُ إليه أن يوصلني إلى البيت. رنّ هاتفُه فسبقتُه إلى السيّارة. جالسةً أستمع إلى الموسيقى، وقع نظري على مذكّرةٍ صغيرةٍ مرميّةٍ تحت قدميّ. التقطتُها، فلمحتُ خطَّ عمر على أول صفحة. دفعني الفضول إلى قراءتها، وساعدني في ذلك أنه أطال الحديث في محموله.

«حياته مللٌ في ملل. كان يعتقد أنّ علاقته بزوجته ستشتعل مع مرور الوقت. نعم، رُزق بأطفال، وكوّن حياةً عائليّة مستقرة، لكنّه لم ينعمْ بلحظة سعادةٍ حقيقيّة واحدة مع زوجتي. رجولته لم يحسّها معها، وأنوثتها لم تحسّها معه. أحبّها زوجةً وأمًّا لأطفاله، لكنه لا يتواصل معها حين يزأر في داخله الرجلُ. مع ل.، امتلأتْ حياتُه أملًا، لكنها ضاعفتْ تخبّطه وتمزّقه. هكذا يعيش مترنّحاً بين ضفتين: بين وهمِ الاستقرار، وحبٍّ لا يستطيع أن يجازف به...»

انتبهتُ فإذا بعمر يتّجه نحو السيارة. لم أكمل قراءة ما خطّه قلبُه، رغم لهفتي إلى معرفة المزيد، ويقيني أنّ حدسي منذ البداية لم يخب. دسستُ المذكّرة في القمطر الأماميّ. صعد عمر. كان متوتّرًا بعض الشيء، ويبدو عليه التعب. تحرّكت السيّارة. سألتُه بصوت مخنوق مرةً أخرى: «ماذا تريد مني؟» تأمّل ملامحي، ولم يجب. أعدتُ السؤال وأنا أكتم صرخة. أجابني ويدُه اليمنى تضرب على المقود بانفعال شديد:

ـ صدّقيني لا أعرف. لا أعرف. لا أعرف.

ساد صمت بيننا. لا صوت سوى أنفاسنا وعجلات السيّارة. على شفتيه، وشفتيّ، دموعٌ رقيقة دافئة. غبار تناثر من حلقه وحلقي، استقرّ على زجاج السيارة ضبابًا حَجَبَ الرؤية. توقفنا في وسط المدينة. تركتُه وحيدًا، حيث اللالقاء وتابعتُ مشواري نحو البيت، وإحساسٌ باليتم ينمو في داخلي.

المغرب